

التطرف وأزمة العقل المسلم

الدكتور أحمد بوعود

باحث أكاديمي - المغرب

تمهيد :

إغفال ما كان للعامل السياسي من تأثير واضح فيه . وبجملة واحدة ، إن هذه الظاهرة تشكل أكبر مظهر من مظاهر أزمة العقل الإسلامي . إن الانحراف عن الفهم السليم للإسلام انحرف بالناس عن فهم مقاصده وروحه ، فأصبحت الشريعة مجرد رسوم والعبادة رياضة وحركات ، كما أصبح الإيمان والتقوى مجرد أفكار بعيدة عن السلوك لا ينتج عنها عمل . وهكذا غابت الرحمة عن معاملات المسلمين فيما بينهم ، ناهيك عن معاملاتهم مع غيرهم ، مناقضين ما دعا إليه ديننا ، يضاف إلى هذا قلة فهم للواقع الذي يعيشه المسلمون وما أوصلهم إليه .

من هنا عدت الضرورة إلي بحث هذا الموضوع من خلال النقاط الآتية :

- ١ - الجذور الأولى للتطرف .
- ٢ - أزمة العقل المسلم .
- ٣ - (مفهوم الجاهلية) .. تصور خاطئ
- ٤ - حاجتنا إلى فقه الرحمة النبوية .
- ٥ - العنف ومصير الإنسان الأخروي .

الجذور الأولى للتطرف :

قد لا تجانب الصواب إذا ما قلنا إن التطرف الذي تكتوي بناره المجتمعات الإسلامية ليس وليد اليوم . وإنما هو ذو جذور ضاربة في القدم . حيث ظهرت بوادره الأولى في مجتمع النبوة ، كما في الحديث الذي يرويه (عبد الرحمن بن أبي نعم ، قال : سمعت أبا سعيد الخدري

إن المتأمل في واقع المسلمين اليوم ليصاب بالدهشة والاستغراب ، حيث يجد جملة من التناقضات يمكن اختزالها في مظهرين كبيرين :

الأول : إعراض عن دين الله تعالى والغفلة عنه وعدم الامتثال له ..

الثاني : غلو وتطرف في الأخذ بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف إلى حد الخروج وهذان مظهران سلبيان لا يقرهما الإسلام ، لا في نصوصه ولا في مقاصده . ولعل المظهر الثاني يشكل أكبر خطر علي الإسلام ، لأنه يلصق به ما ليس منه ، وينفر منه ، ويقدم صورة مشوهة ورهيبة للناس ، ويجلب علي الإسلام والمسلمين الويلات ، ويضاعف من أزماته ، خاصة ونحن في وقت يحتاج فيه الإسلام إلي تعزيز وجوده وبسط رحمته للعالمين .

وإنه من الظلم أن ننسب هذه الظاهرة إلي الإسلام وهو منها برئ ، أو نجعل لها أصلاً فيه ، وهو منها خال ، كما أنه من الخطأ الفادح أن نبرر ذلك بمبررات الوقت والواقع المعاصر وضغوطه . إن البحث في ظاهرة العنف يقتضي البحث عن جذورها ومعرفة المسار الذي قطعتة بتعرف مواطن الخلل التي أفضت علي فشوهذه الظاهرة واستفحالها . ولعل من الصواب القول : إن ظاهرة التطرف تتعلق أساساً بخلل في فهم الدين ومقاصده وبتصور الناس له ، مع عدم

الله صلى الله عليه وسلم هذه الثورة لكون الرجل من أهل القبلة يصلي ، ولم ينقب عن قلبه ولا بطنه .. صلى الله عليه وسلم يرد الأمر دائماً الي نصابه حرصاً منه علي عدم انجرار المسلمين وراء التطرف وما ينتج عنه مما يهدد آخرتهم . وقد يعترض معترض بأن التطرف ، وما ينتج عنه ، هو أمر لم يخل منه مجتمع وليس خاصاً بمجتمع بعينه ، أو ديانته بعينها . وأسارع الي الجواب أن نعم ، مع التأكيد علي أن، الدين الإسلامي إنما جاء رحمة للعالمين : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (الأنبياء ١٠٧) وهو دين وسط وأمة وسطاً (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) (البقرة: ١٤٣) فما ناقض هذين المبدئين استوجب الوقوف عنده ونبذه.

ومع مقتل الإمام عثمان بن عفان رضي الله عنه ستطراً علي المجتمع الإسلامي تحولات خطيرة أصابت العقل الإسلامي بعاهة استفحلت مع توالي السنين.

١ - عنف الدولة :

بعد الخلافة الراشدة بدأ حكم معاوية ، رضي الله عنه ، أول ملك . وقد أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في أكثر من حديث ، ونسوق هنا حديثاً عن سفيينة ، مولي أم سلمة ، رضي الله عنها ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلي الصبح أقبل علي أصحابه فقال : أيكم رأي الليلة رؤيا؟ قال : فصلي ذات يوم ، فقال : أيكم رأي رؤيا؟ فقال رجل : أنا رأيت يا رسول الله كأن ، ميزانا دلي به من السماء ، فوضعت في كفة ووضع أبو بكر في كفة أخرى فرجحت بأبي بكر ، فرفعت وترك أبو بكر مكانه ، فجئ بعمر بن الخطاب فوضع في الكفة الأخرى فرجح به أبو بكر ، فرفع

يقول : بعث علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن بذهبية في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها ، قال : فقسمها بين أربعة نفر : بين عيينة بن بدر ، وأقرع بن حابس ، وزيد الخيل ، والرابع إما علقمة وإما عامر بن الطفيل .. فقال رجل من أصحابه : كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء قال : فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ، يأتييني خبر السماء صباحاً ومساءً ؟ قال : فقام رجل غائر العينين ، مشرف الوجنتين ، ناشز الجبهة ، كث اللحية ، محلول الرأس ، مشمر الإزار ، فقال : يا رسول الله ، اتق الله ، قال : ويحك ، أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله ؟ قال : ثم ولي الرجل . قال خالد بن الوليد : يا رسول الله ، ألا أضرب عنقه ؟ قال : لا ، لعله أن يكون يصلي .. فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم .. قال : ثم نظر إليه وهو مقف ، فقال : إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية) .

فأنظر هنا إلي ذلك الرجل الذي جاء يغلف القول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثائراً علي القسمة التي قسمها رسول الله . ويخبرنا الحبيب صلى الله عليه وسلم بأن بذرة الثورة والتطرف لن تقف عند هذا الحد ، بل ستتلوها مواقف أخري من قبل ناس يتلون كتاب الله تعالي رطباً ، لكن ينقصهم فهم الدين وفقه مقاصده.

ومع هذا نجد الحلم الذي قابل به رسول

فإن العلماء علي ما يظهر كانوا يمتنعون أن يتولوا عملاً لدولة لا يحبونها لئلا يكون ذلك تأييداً لها^(٥) ويوضح هذا ما قاله أبو حنيفة عن زيد بن علي بن الحسين ، الذي خرج في ملك هشام بن عبد الملك ، (ضاهي خروجه خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر)^(٦).

وفي عهد بني العباس . نجد أبا جعفر المنصور يطلب من أبي حنيفة أن يكون قاضياً للدولة ، لكننا نجد أيضاً الرفض نفسه . ومع هذا الرفض نجد أيضاً العذاب . إنها محاولات مبكرة لتدجين العلماء . فهذا صاحب (شذرات الذهب) يحكي لنا على لسان الربيع بن يونس حاجب المنصور (رأيت أمير المؤمنين ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء ، وأبو حنيفة يقول : أتق الله ، ولا تشرك في أمانتك إلا من يخاف الله ، والله ما أنا بمأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تفرقتني في الفرات ، أو أن تلي الحكم لأخترت أن أغرق ، ولك حاشية يحتاجون الي من يكرمهم لك ، فلا أصلح لذلك ، فقال له : كذبت أنت تصلح . فقال : قد حكمت لي علي نفسك ، كيف يحل لك أن تولي قاضياً علي أمانتك وهو كذاب (٧) فكان مصيره الضرب والعذاب والسم .

الإمام مالك بن أنس :

هو مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي . مدني المولد . سنة ٩٢ للهجرة ، وتوفي سنة ١٧٩ هـ .

وقد ساند الإمام مالك رحمه الله ، محمد النفس الزكية في قومته ضد أبي جعفر المنصور ، الذي كانت بيعته بالإكراه ، وليس علي مستكره بيعه ، فكان يكثر من حديث النبي صلى الله

أبو بكر ، وجئ بعثمان فوضع في الكفة الأخرى فرجع عمر بعثمان ، ثم رفع عمر وعثمان ورفع الميزان . قال : فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : خلافة النبوة ثلاثون عاماً ثم يكون الملك^(١).

وروي أبو يعلي في مسنده عن أبي ذر ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أول من يبدل سنتي رجل من بني أمية)^(٢) وعلق عليه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة بقوله : (ولعل المراد بالحديث تغيير نظام اختيار الخليفة وجعله وراثية)^(٣) لم يعد أمر المسلمين شوري واختياراً ، والبيعة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هي إعطاء صفقة اليد وثمرة القلب^(٤) . أي عن رضي وحب وسلامة قلب ..

والبيعة عقد اجتماعي ، بين الراعي والرعية ، مركب من عقدين اثنين هما :

عقد ايمان : بين (الشعب والحاكم) يلتزم الجميع علي أساسه بتطبيق شريعة الله .

عقد أداء : وهو عقد بين الشعب وولي الأمر لتحقيق مصالح الأمة وفق شريعة الله .

٢ - عنف ضد الأئمة الأربعة :

الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان :

هو النعمان بن ثابت بن زوطي ، كوفي المولد سنة ٨٠ للهجرة وتوفي سنة ١٥٠ للهجرة ، عاش مخضرمًا بين حكم أموي وحكم عباسي .

طلب من أبي حنيفة غير ما مرة أن يلي القضاء لكنه لم يستجب . وقد عذبه من أجل ذلك والي العراق يزيد بن هبيرة في عهد مروان . ولم يكن الإيذاء فقط سبب الضرب ، وإنما كما يقول الشيخ محمد الخضري : (محنة المعروض عليه حتي يعرف مقدار ولائه للدولة .

إليك^(١٢) . فكان مصير التسعة القتل ، ونجا الإمام الشافعي بحسن كلمه وتدخل صاحبه قاضي القصر .

ويعلق الأستاذ عبد السلام فيغو على هذه الواقعة قائلاً : (وخرج الشافعي من التهمة ونجا برأسه ، وتعلم الشافعي أن لا يزج بنفسه في صراع سياسي)^(١٣)

ولكن بماذا تقصر مساندة الشافعي ليحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى في خروجه ، بل ومبايعته ، سنة ١٩٢ هـ ، كما يحكي ذلك صاحب الشذرات حيث قال : (قام يحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى وبث دعائه في الأرض ، وبايعه كثيرون من أهل الحرمين واليمن ومصر والعراقيين ، وبايعه من العلماء محمد بن إدريس الشافعي ..)^(١٤) .

إن مثل هذه الوقائع تدل على أن أمر الحكم لم يكن ليرضي علماء الأمة ، ورثة الأنبياء . ولاستبداد أهله وأخذهم البيعة كرهاً .

الإمام أحمد بن حنبل :

هو أحمد بن حنبل بن هلال الذهلي الشيباني المروزي . ولد ببغداد سنة ١٦٤ هـ وتوفي رحمه الله عليه سنة ٢٤١ هـ .

وبذكرنا للإمام أحمد نتذكر ذلك العذاب الذي سيمه بسبب قضية خلق القرآن . وما سبب تلك الفتنة إلا تمكن الفكر الاعتزالي من القصر واستحوذ على أهله . ذلك أن القضية كلامية تم توظيفها سياسياً لضرب العلماء والفقهاء الذين كانوا يمثلون أهل السنة والجماعة^(١٥) . وما كان هذا ليحدث لو كان الحكام أهل نظر ، ولجنبوا العلماء والأمة مثل هذه القضايا التي فرقت الأمة وبددت جهودها ، وهذا ما يدفعنا إلى التأكيد مرة أخرى على إعادة النظر فيما

عليه وسلم (لا طلاق ولا عتاق في إغلاق) (٨) . أي في إكراه ، لأن الناس كانوا يحلفون بطلاق أزواجهم إن هم نقضوا بيعتهم ، فما زال يعذب في هذا حتى انخلعت كتفه (٩) .

ويحكي صاحب الشذرات أن الإمام مالكا حمل إلى بغداد وقال له واليها : (ما تقول في نكاح المتعة؟ فقال : حرام . فقيل له : ما تقول في قول عبد الله ابن عباس فيها؟ فقال : كلام غيره فيها أوفق لكتاب الله تعالى . وأصر علي القول بتحريمها ، فطيف به علي ثور مشوها . فكان يرفع القدر عن وجهه ويقول : يا أهل بغداد ، من لم يعرفني فليعرفني ، أنا مالك بن أنس فعل بي ما ترون لأقول بجواز نكاح المتعة ولا أقول به)^(١٠) .

الإمام محمد بن إدريس الشافعي :

وهو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع المصلي . ولد سنة ١٥٠ هـ وتوفي سنة ٢٠٤ هـ .

اتهم الشافعي رحمه الله بالتشيع ، في عهد هارون الرشيد ، باليمن ، وهي موطن الشيعة آنذاك ، وكان يكثر من ذكر الإمام علي كرم الله وجهه والاستشهاد بمناقبه ولما كثر اتهامه بالتشيع والرفض قال :

إن كان رفضاً حب آل محمد .. فليشهد الثقلان أنني رافضي^(١١) .

وفي سنة ١٨٩ هـ حمل الإمام مع تسعة من العلويين إلى الرشيد بعدما كتب بشأنه الوالي يقول : (إن تسعة من العلويين تحركوا ، وإنني أخاف أن يخرجوا . وإن معهم رجلاً يقال له محمد بن إدريس ، لا أمر لي معه ولا نهى ، يعمل بلسانه ما لا يقدر المقاتل عليه بسيفه ، فإن أرد أن تبقي الحجاز عليك فاحملهم

نزر يسير في قضايا الأمة والمجتمع والعلاقة مع النظام الحاكم . ويعجب الشيخ محمد الخضري فيقول : (ومما يقضي بالعجب أنهم اتخذوا ثلاثة موضوعات أساساً لمئات المسائل التي كدوا في إبراز الجواب عنها ، وهي الرقيق والتصرف فيه ، والزوجة وطلاقها ، والأيمان والحنث).

فأما الرقيق فيظهر أنه كثر في أيديهم كثرة وجهت أفكارهم إلي العناية بأحكامه ، فالأترى باباً من أبواب المعاملات إلا وأكثر مسائله مبنية علي عبد وجارية ، تري ذلك ف يالبيع والإجارة والشركة والرهن والوصية والعقود وغير ذلك .

وأما طلاقها فقد أجهدت الفكر علي أصل إلي ما وجه أفكارهم الي هذه المسائل التي وضعوها فلم أوفق ، ولو كانت من المسائل التي يتصور وقوعها ولو من هذا لقلنا : إنهم يهيئون للحوادث أجوبتها حتي لا يتوقف مفت أو قاض إذا سئل عنها ، أما وهي مما يصعب تصور حصوله فإن العجب يزداد والأسف يشتد علي زمن بذل فيها .

أما الإيمان والنذور فهي بحر لا ساحل له . تري فيه تنوعاً مدهشاً كأنهم استحضروا كل ما يصوره الخيال من الأيمان فذكروه وذكروا جوابه ، مع أن في ذلك أشياء كثيرة جداً يختلف العرف فيها بإخلاف البلاد .^(١٧)

وكان لسد باب الاجتهاد نتائج خطيرة كان لها أخطر الآثار وأسوأ العواقب علي الفكر الإسلامي عامة ، والفكر الفقهي خاصة ، فلم نعد نلاحظ ذلك التوقد والتوهد والحيوية في المنتجو الفكري اللاحق ، وإنما بتنا نقرأ مؤلفات سمتها الأساسية التكرار والجمود .. وهذا ليس مقصوريا علي كتب الفقه والأصول

سمي بعلم الكلام ، وفي الفرق الكلامية التي كانت من ثمار تحول الخلافة إلى ملك .

ولقد استمر صمود الإمام في هذه المحنة أيام المأمون والمعتصم والواثق ، من سنة ٢١٨هـ حيث كان المأمون هو الحاكم ، إلي ٢٢٢هـ سنة تولي المتوكل الذي ترك الناس لاختياره وأبطل الدعوة إلي القول بخلق القرآن .

إذا كان هذا يقع للأئمة الأربعة ، وهم شامة المسلمين في العلم والاجتهاد والورع ، فإن نصيباً أوفر من التعذيب والتدجين يصيب ولا شك غيرهم .

أزمة العقل الإسلامي :

قبل سد باب الاجتهاد كان الاجتهاد الذي يصدر من المجتهدين يتميز بمميزات نجمها في :

أولاً : كان اجتهاد الصحابة رضي الله عنهم قائماً علي وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم الغالية : (تجعلونه شوري بين العابدين من المؤمنين)^(١٨) . هذه الوصية إن كان أخذ بها الفقهاء الصحابة ، رضي الله عنهم ، فإن بعد الانكسار التاريخي لا نجد لها ذكراً أو أثراً . ولئن كانت مهمة استشارة العابدين من وظائف الحاكم . فإن الحكم كما رأينا قد انحرف عن منهاج النبوة ، واقتربت الدولة عن الدعوة ، وحصل شرخ بين مؤسسة العلماء ومؤسسة الحكم ، والواجب أن تكون الدولة خادمة للدعوة وراعية لها . وهكذا ساد الاجتهاد الفردي الذي كان من العلماء الأفاضل كما رأينا .

ثانياً : إن الناظر في اجتهاد العلماء بعد الانكسار التاريخي يجد غزارة في قضايا الزواج والطلاق والحنث والعبادات ، مقابل

الخلط والتخبط.

وهذا ما دفع ابن القيم . رحمه الله ، إلي الإعلان في كتابه (إعلام الموقعين عن رب العالمين) أن :

لا بد من (فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علما .. فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه الي معرفة حكم الله ورسوله . كما توصل شاهد يوسف بشق القميص من دبر إلي معرفة براءته وصدقه ، وكما توصل سليمان بقوله : ائتوني بالسكين حتي أشق الولد بينكما إلي معرفة عين الأم...)^(١٨).

الفتوي تتغير بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد ، والحكمة في ذلك أن الشريعة بنيت علي مصالح العباد في المعاش والمعاد . قال : (هذا فصل عظيم النفع جدا ، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم علي الشريعة أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إله ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلي رتب المصالح لا تأتي به . فإن الشريعة مبناها وأساسها علي الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد . وهي عدل كلها ومصالح كلها . وحكمة كلها ، فكل مسألة خرجت عن العدل إلي الجور وعن الرحمة إلي ضدها وعن المصلحة إلي المفسدة وعن الحكمة إلي العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل . فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه . وعلي صدق رسوله صلى الله عليه وسلم أتم دلالة وأصدقها.)^(١٩).

إن حدوث الفجوة بين الشريعة والواقع إنما

، بل شمل كل أجناس الفكر والإبداع ، ورغم هذا ، كان يظهر من حين لآخر منتج فكري يحاول التمرد علي الأعراف التقليدية السائدة والتخلص من موروثات الجمود التي أخذت تتحكم في الفكر والفقه.

تلك النتائج التي نجمت وفي نظرنا عن سد باب الاجتهاد نجملها في :

١ - استفحال القطيعة بين الدعوة والدولة :

فبعد أن سد باب الاجتهاد ، والذي كان من نتائج فصل الدعوة عن الدولة ، ازدادت الهوة اتساعا بين الدعوة والدولة ، وتقوت القطيعة بين مؤسسة الحكم ومؤسسة العلماء . إلا ما كان من تدجين الأولي للثانية واحتضان غير شرعي لها.

ويتبين هذا الأمر من خلال السجون التي كانت تستقبل كل معارض للحكم ، أو التعذيب الذي كان يطال كل عالم لا ينصاع للتوجه السياسي العام للنظام الحاكم ، ولا أظن أن أحدا ينكر ذلك .

٢ - الفجوة بين الشريعة والواقع :

فتوقف الإجتهد يعني تجاهل متطلبات الواقع من أحكام وفتاوي وآراء لينصلح بها أو ليواكب بها الإنسان موكب الشريعة التي إنما جاءت لتخرجه من ظلمات الشرك والظلم إلي نور التوحيد والعدل ، لكن بعد سد باب الإجتهد بدت آراء السابقين هي صاحبة الكلمة في واقع متغير مختلف تماما عن سابقه ، من هنا أصبحت شريعة الله عز وجل مجرد أفكار نظرية لا تستطيع أن تؤثر في الناس أو تصلح واقعهم أو توجه حياتهم . بل حتي التنزيل ما دام أنه يحتاج إلي اجتهاد فقد غدا ضربا من

هو بتوقف البحث في المسائل الفقهية والأصولية من جهة ، ومن جهة أخرى باتباع وتقليد السابقين والتزام آرائهم وفتاواهم ، كما هو الشأن ، في فتوى إمامة المستولي بالسيف .

ويحق لنا أن نتساءل كيف عاش المسلمون طيلة عشرة قرون علي نتائج القرون الأولى ؟

وفي القرن الثامن الهجري جاء الإمام الشاطبي ، رحمه الله (٧٩٠هـ) ونادي منذرا ومحذرا بأعلي صوته : إن الشريعة في خطر ، واستنهض الهمم من أجل الحفاظ عليها وعلي مقاصدها ، لأن مخلفات سد باب الاجتهاد هددت الشريعة الإسلامية كما هددت وحدة المسلمين . فقام بنبه علي أن (وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والأجل معا) ^(٢٠) وأن (المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه ، حتي يكون عبد الله اختيارا ، كما هو عبد الله اضطرارا) . ^(٢١)

وما دامت شوكة الإسلام قائمة ، وبيضة الإسلام لم تنكسر بعد ، فإن الشاطبي ، رحمه الله ، ومن سبقه ، لم يتكلموا عن وحدة المسلمين ، ذلك الأمر الجامع ، فعبروا عن مقاصد الشريعة في صيغة حفاظية لا مطلبية . أما اليوم ، فجدير بعلامتنا أن يسألوا أين وحدة المسلمين ؟ أين هي شوكتهم ؟ أين هي شريعتهم ؟ وهذه خطوة أولى في حل أزمة العقل الإسلامي .

فمن أعمي بصره عن واقعه وغفل عنه ، فإنه لا يعبد الله عز وجل تمام العبادة ، ولا يوفيهما حقها ، كما أن من اعتبر نصوص القرآن وصحيح الحديث دون فهم حقيقة واقعة فإنه لا يقدر علي الاجتهاد والتغيير ، ذلك أن دراسة المجتمعات ، وفهم واقعها ، وتاريخها وثقاتها

ومعادلاتها الاجتماعية ، هو السبيل إلي معرفة كيفية التعامل معها ، وإلي تقويم سلوكها بشرع الله . وإذا غفلت الحركة التغييرية عن الواقع في عملها فإن مصيرها أحد ثلاثة : التأخر ، أو الفشل وهذا يوصل إلي العنف .

ويلخص لنا الشيخ القرضاوي أزمة التعامل مع الواقع فيقول : (رأينا فقهاء الأوراق يقاثلون علي أشياء يمكن التسامح فيها ، أو الاختلاف عليها ، أو تأجيلها إلي حين ، ويفعلون قضايا حيوية مصيرية ، تتعلق بالوجود الإسلامي كله ، وهؤلاء قوم قد لا ينقصهم الفقه ، ولئن جاز تسميتهم (علماء) فلا يجوز تسميتهم (فقهاء) لو كانوا يعلمون ^(٢٢) .

مفهوم الجاهلية .. تصور خاطئ :

هناك منطلقات (شرعية) ينطلق منها التطرف ، سواء المتعلقة بالعنف أو التكفير وما علي ذلك ، وفي مقدمة هذه المنطلقات ذاك التصور الخاطئ الذي يصف المجتمع الإسلامي المعاصر والمعاصرة بـ (الجاهلية) ومطابقتها للجاهلية التي عاشها العرب قبل نزول الرسالة . ومن شأن هذا الحكم أن يجري علي المسلمين المعاصرين ما أجري علي الكفار والمشركين معاصري الوحي .. فضلا عما يمكن ان يجري علي غير المسلمين .

ولعل أول من أطلق هذا الوصف هو الشهيد سيد قطب ، رحمه الله ، الذي كان يري أننا (اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم . كل ما حولنا جاهلية .. تصورات الناس وعقائدهم ، عاداتهم وتقاليدهم . موارد ثقافتهم . فنونهم وآدابهم ، شرائعهم وقوانينهم ، حتي الكثير مما نحسبه

الثقافة الإسلامية ، ومراجع إسلامية ، وفلسفة إسلامية ، وتفكيراً إسلامياً ، هو كذلك من صنع الجاهلية!!

لذلك لا تستقيم قيم الإسلام في نفوسنا ، ولا يتضح تصور الإسلام في عقولنا ، ولا ينشأ فينا جيل ضخم من الناس من ذلك الطراز الذي أنشأه الإسلام أول مرة^(٣٣) .

إن وصف المجتمع والحياة بالجاهلية ، علي إطلاقه ، له انعكاسات خطيرة علي المنهج المستخدم في التغيير . ذلك أن تشخيص الواقع هو الذي يدلنا علي المنهج الممكن اتباعه ، وما دام التشخيص بهذا الشكل ، فإن المنهج سيكون في مستوي ما يغير هذه الجاهلية وهذا ما يتابع سيد قطب ، رحمه الله ، حديثه عنه قائلاً : (إن أولي الخطوات في طريقنا هي أن نستعلي علي هذا المجتمع الجاهلي وقيمه وتصورات . وألا نعدل نحن في قيمنا وتصوراتنا قليلاً أو كثيراً لنلتقي معه في منتصف الطريق ، كلا إننا وإياه علي مفرق الطريق ، وحين نسايره خطوة واحدة فإننا نفقد المنهج كله ونفقد الطريق .)^(٣٤) .

وهكذا يدعوا سيد قطب ، رحمه الله ، الحركة الإسلامية إلى (مواجهة هذا الواقع كله بما يكافئه...تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات، وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها ، تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات...)^(٣٥)

إن الحم بالجاهلية بإطلاق طريق سهل ألي التفكير والتطرف والعنف . ومعني هذا (أن الناس كلهم علي ضلال ما داموا لم يتبنوا ما أعتمدته).

لم يكن عبثاً أن عرضنا جانباً من تاريخ

الأمّة الإسلامية في مقدمة هذه الورقة ، وإنما أردنا أن نبين التحولات الخطيرة التي عرضت لها ، ونكشف عما ورثه المسلمون اليوم . ولعل من سوء الفقه للواقع أن نصف المجتمع الإسلامي المعاصر بالراشدي ، أو بالمجتمع الإسلامي الخالص ، لكن ، من الظلم أيضاً أن نصفه بالجاهلية . ذلك أن الحياة الإسلامية بها بقايا الخبر ، والعقيدة الصالحة جذوة كامنة تتجلي في السلوك العام للمسلمين . وفي أخلاقهم وتضامنهم وتعاطفهم ، وفي حبهم للخير وفي غيرتهم علي دينهم ورغم عدم الوفاء بالتزاماتهم نحوه . وكذلك في خشيتهم من ربهم وتعظيمهم لنبيهم (أفإن وجد من بين المسلمين ، من حاكم طاغ ومتبرجات ومنافقين ، من هم من أهل النار نحكم أن الأمّة كلها جاهلية؟ .. ديننا وتاريخ إقامته ، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته ، وسيرة الانتقال الأول علي عهد التنزيل من جاهلية لإسلام ، تنبئنا أن الإسلام ما كان يوماً بقعة منعزلة فيها ملائكة أطهار تقابلها بقعة أخرى منعزلة تعيش فيها الشياطين الكفار ، نعم . من دخل حوزة لا إله الا الله معترفاً شاهداً بوحدانيته ، مصداقاً بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم مؤمناً برسالته ، فقد دخل الإسلام وخرج من الكفر.

لكن هل سلم ضربة لازب من بقايا الجاهلية ورسوباتها ، وهل طهر المجتمع الإسلامي الأول من كل دخال الجاهلية حتي نتظر من مجتمع اليوم وغد أن يدلي ببراءة ملائكية والا فهو كفر وجاهلية وبدعة وضلالة؟^(٣٦) .

ولعل من حق القارئ أن يسأل : إذا لم نصف المجتمع الإسلامي المعاصر بالجاهلية ، فبماذا

منهاجاً واقعياً واسعاً شاملاً وكاملاً للدعوة إلى الله عز وجل.

أ - مخاطبة الناس حسب الأفهام ودرجات الوعي؛

كأن النبي صلى الله عليه وسلم أدري بأفهام الناس ودرجات وعيهم ، ومن ثم كان يخاطبهم بحسبها ، وهذا موافق لما أخرجه البخاري موقوفاً على علي ، رضي الله عنه ، (حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله) .^(٢٩) ويتضح هذا مما يلي : عن ابن عمر ، رضي الله عنهما قال قال رجل يا رسول الله حدثني بحديث واجعله موجزاً ؟ فقال صلى الله عليه وسلم (صل صلاة مودع ، فإن كنت لا تراه ، فإنه يراك ، وإياك وما يعتذر منه) .^(٣٠)

فالرجل يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً ولكن موجزاً ، ويراعي صلى الله عليه وسلم قدرة الرجل على الاستيعاب فلا يزدده على ثلاث.

وجاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علمني كلاماً أقوله قال (قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، سبحان الله رب العالمين ، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم) قال : فهؤلاء لربي ، فما لي ؟ قال : قل (اللهم اغفر لي وارحمني ، واهدني ، وارزقني) .^(٣١)

فانظر إلى الاعرابي ، وهو المعروف بالطبع الحاد والفهم الساذج والانفعال السريع ، يقول : هذا لربي ، فمالي ؟ والنبي صلى الله عليه وسلم لم يعنفه ، بل علمه دعاء وقدر فهمه ، فكان يمكنه أن يعلمه ما لا يطيق أو ما يسبب له حنقا وغضباً على الإسلام.

نصفه ؟ وهو غير خالص الإسلام ؟ أقتطف هنا كلاماً للأستاذ عبد السلام ياسين يعطي وصفاً قرآنياً نبوياً لما عليه المسلمون اليوم حين يقول : (متى اختلط الحق بالباطل ، ودخل الإسلام على الجاهلية فبقي منها رواسب ، أو أعادت الجاهلية كرتها على الإسلام فعمرت صفوه ، فتلك (الفتنة) ، الفتنة مفهوم محوري ، الفتنة حكم نبوي ، الفتنة تحفظ وحكمة ولزوم لجانب التحري والصواب) .^(٣٢)

وقد وردت مادة (فتن) في القرآن الكريم ستين مرة . وقال الراغب الأصبهاني في تعريفها (أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته ، واستعمل في إدخال الإنسان النار . وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء وهما في الشدة أظهر معني وأكثر استعمالاً) .^(٣٣)

حاجتنا إلى فقه الرحمة النبوية ؛

في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم السمات الأساسية للدعوة الإسلامية ومنهاجها الواضح ، إذا ما درسناها وتعمقنا في فهمها استخلصنا فقهاً للرحمة ينير لنا سبيل الدعوة في هذا العصر ويعطيها معني سامياً فيدخل في دين الله أفواجا .

ومن يستعرض السيرة النبوية الشريفة يجد النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب الناس حسب أفهامهم ، ويعاملهم ويخاطبهم حسب قدراتهم . كما كان يراعي أحوالهم في المنشط والمكره ، ويعتبر حاجاتهم ويرأف بهم ويسر عليهم ، ويرفع عنهم الحرج .. إنها ملامح أساسية للدعوة النبوية ، تعرض بعضاً منها لاستخلاص العبر والحكم ، لتكون بذلك

وأنا صائم ، قال (لا) فجاءه شيخ فقال (أقبل وأنا صائم؟ قال (نعم) قال فتظر بعضنا الي بعض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علمت لم نطر بعضكم إلي بعض . إن الشيخ يملك نفسه) وقدرة الشيخ ليست هي قدرة الشاب.

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها انها قالت يا رسول الله نري الجهاد أفضل العمل ، أفلا نجاهد؟ قال (لا .. لكن افضل الجهاد حج مبرور) (٢٢).

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ان كعب بن مالك حين أنزل الله تبارك وتعالى في الشعر ما أنزل (٢٣) أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أن الله تبارك وتعالى قد أنزل في الشعر ما قد علمت ، وكيف ترى فيه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه) (٢٤).

فانظر أخي كيف تعددت صور الجهاد بتعدد قدرات المخاطب ومؤهلاته . وعن ابي ذر الغفاري رضي اله عنه أن ناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال (أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ، إن بكل تسبيحة صدقة ، ونهي عن منكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة) قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال (أرأيتم لو وضعه في حرام أكان عليه فيها وزر ، فكذلك إذا وضعه في الحلال كان له أجرا) .

فهؤلاء لا يملكون ما يتصدقون به وأهل الدثور يعلمون الأعمال نفسها ويفوقونهم بصدقاتهم

واذ أتكلم عن هذا الأعرابي ، أتذكر الأعرابي الآخر الذي تبول في المسجد واتذكر تلك المعاملة اللطيفة التي عامله بها صلى الله عليه وسلم.

وهذا يزيد بن سلمة رضي الله عنه قال يا رسول الله أني قد سمعت منك حديثا كثيرا أخاف أن ينسيني أوله آخره ، فحدثني بكلمة تكون جماعا . قال (إتق الله فيما تعلم) .

فيزيد بن سلمة يريد كلمة جامعة تغنيه عن تذكر واستحضار ما سبق ، حتي إن نسيه كفته ويجيبه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه غير مجبر علي ما لا يعلم وما قد نسي ، وذلك بقوله (أتق الله فيما تعلم) وكم هو موجز هذا الكلام . وكم هو بليغ .

ب - مخاطبة الناس حسب قدراتهم:

عن أم هانئ رضي الله عنها قالت أتيت الي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله دلني علي عمل فإنني قد كبرت وضعفت وبذنت .. فقال (كبري الله مائة مرة واحمدي الله مائة مرة وسبحي الله مائة مرة خير من مائة فرس ملجم مسرج في سبيل الله . وخير من مائة بدنة . وخير من مائة رقبة) .

ولعل هذا الحديث غني عن كل تعليق امرأة كبيرة وضعيفة لم تعد تقوي علي أعمال البر ، والرسول صلى الله عليه وسلم يصف لها ما يناسب كبرها وضعفها ، وما هو خير لها من فرس ملجم في سبيل الله . وخير من مائة بدنة ، وخير من مائة رقبة.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضي الله عنهما ، قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاء شاب فقال : يا رسول الله ، أقبل

ويطردهن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (دعهن يا عمر ، فإن العين دامعة ، والقلب مصاب ، والعهد قريب) ^(٢٧).

فالرسول صلى الله عليه وسلم قدر الحالة النفسية للنساء ، والمصيبة التي حلت ، فطلب من عمر ، رضي الله عنه أن يتركهن وشأنهن. كما يعلمنا صلى الله عليه وسلم أن نقدر حالة المسلم في مرضه ، عندما عاد مريضاً فقال له: (ما تشتهي) قال أشتي خبز بر . قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من كان عنده خبز بر فليبعث إلي أخيه) ... ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا اشتى مريض أحدكم شيئاً فليطعمه) ^(٢٨).

د - اعتبار حاجات الناس والرأفة بهم :

جاء الإسلام رحمة للعالمين ، يلبي حاجات الناس ما دامت لا تخالف الشرع ، ونعرض هنا أمثلة من السنة الشريفة .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر الناس أن يؤدوا زكاة الفطر قبل أن يخرجوا الي المصلي ، وقال (أغنوهم عن السؤال) .

انظر كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في توجيهاته يراعي حاجات الناس ومتطلباتهم ، ولا يخرج عنها ... وهنا قدر حاجة الضعفاء بأمر المسلمين تأدية صدقة الفطر أول يوم العيد ، حتي يتحقق الإغناء فلا يطوفوا في الأزقة والأسواق لطلب المعاش ^(٢٩).

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري، رضي الله عنه، قال أقبل رجل بناضحين وقد جنح الليل فوافق معاذاً يصلي فترك ناضحة وأقبل الي معاذ ، فقرأ بسورة البقرة أو النساء فانطلق الرجل وبلغه ان معاذاً نال منه ، فاتي النبي

ومن ثم يفوقونهم في الأجر ، والنبي صلى الله عليه وسلم مراعاة لقدراتهم يذكرهم بأعمال بسيطة في قدرها عظيمة في ثوابها بمثابة ثواب الصدقة.

ج - مراعاة أحوال النساء في المنشط والمكره :

وكما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب الناس ويعاملهم حسب أفهامهم وقدراتهم ، كان أيضاً يراعي أحوالهم في المنشط والمكره في الشدة والرخاء ، فيقينا ان ما لا يصلح للإنسان في الرخاء قد يصلح له عند الشدة ، وقد رأينا أمثله من هذا في بعض التشريعات القرآنية ، من ذلك:

منع النبي صلى الله عليه وسلم إقامة حد السرقة فيث الحرب حفاظاً علي موقع المسلمين وقوتهم . عن جنادة بن أبي أمية قال كنا مع بسر بن أرطاة في البحر فأتي بسارق يقال له مصدر قد سرق بختية ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (لا تقطع الأيدي في السفر ولولا ذلك لقطعته) .

قال العزيزي في شرح الجامع الصغير ، قوله : في السفر ، أي سفر الغزو ، مخافة أن يلحق المقطوع بالعدو ، فإذا رجعوا قطع ، و به قال الأوزاعي ^(٣٥).

واحتلم علي عهد النبي صلى الله عليه وسلم رجل فأمر بالآغتسال ، فاغتسل وكان مصاباً بجرح ، فمات وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (قتلوه قتلهم الله ، ألم يكن شفاء العي السؤال) ^(٣٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال (مات ميت من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمع النساء يبكين عليه ، فقام عمر ينهاهن

(كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فأراد المؤذن أن يؤذن للظهر فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أبرد) ثم أراد أن يؤذن فقال له (أبرد) حتي رأينا في التلول فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن شدة الحر من فيح جهنم فإذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة) ^(٤٣)

وهذا اتقاء للحز الشديد الذي يضر بالجسم . وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال كانت بي بواسير فسألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فقال (صل قائماً فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب) ^(٤٤)

هـ - التيسير ورفع الحرج :

من خصائص التشريع الاسلامي رفع الحرج يقول الله عز وجل (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) الحج ٧٨ . وقال صلى الله عليه وسلم (يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تتفروا) ^(٤٥) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن اعرابيا بال في المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوه وأهريقوا علي بوله ذنوباً من ماء أو سجلاً من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين ^(٤٦) .

وتيسير النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن أمراً خفياً او خاصة مع قوم وانما كان عاماً يشهد به الجميع فهذا (الأزرق بن قيس قال كنا علي شاطئ نهر بالأهواز قد نضب عنه الماء فجاء أبو برزة الأسلمي علي فرس فصلي وخلي فرسه فأطلقت الفرس فترك صلاته وتبعها حتي أدركها فأخذها ، ثم جاء فقضي صلاته وفيها رجل له رأي فاقبل يقول انظروا الي هذا الشيخ ترك صلاته من أجل فرس .

صلى الله عليه وسلم فشكا إليه معاذاً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (يا معاذ أفتان أنت ، أو أفتان ، ثلاث مرار - فلولا صليت بسبح اسم ربك ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشي ، فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة) ^(٤٧) .

وفي رواية أخرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا صلي أحدكم للناس فليخفف ، فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير ، وإذا صلي أحدكم لنفسه فليطول ما شاء) ^(٤٨) .

فالرسول صلى الله عليه وسلم طلب الرأفة بأصحاب الحالات الخاصة بالصغير والكبير والضعيف والسقيم وذو الحاجة ، إنها رحمة الإسلام وسعته .

واقراً معي هذا الحديث تتضح لك واحدة من أسمي سمات الإسلام .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال جاء رجل الي النبي صلى الله عليه وسلم فقال هلكت يا رسول الله قال (وما أهلكك) قال : وقعت علي امرأتي في رمضان ، قال : (هل تجد ما تعتق رقبة؟ قال لا.. قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين . قال لا ... قال (فهل تجد ما تطعم ستين مسكيناً) قال: لا، قال: ثم جلس فأتى النبي صلى الله عليه وسلم بعرق فيه تمر فقال: (تصدق بهذا)... قال : أفقر منا ، فما بين لابتئها أهل بيت أحوج إليه منا . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتي بدت أنيابه ، ثم قال (اذهب فأطعمه أهلک) ^(٤٩) .

هذا الحديث وأمثاله يفتح لنا آفاقاً واسعة للدعوة إلي الله عز وجل برحمة ولين ورفق ، وما أحوج هذه الدعوة الي مثل هذه المواقف . وعن ابي ذر الغفاري رضي الله عنه قال

سبحانه وتعالى لا يعين علي عمل فيه عنف. ويقول النبي صلى الله عليه وسلم الرفق فيه الزيادة والبركة ومن يحرم الرفق يحرم الخير^(٤٩). ولا يعتقدن احد ان الرفق مطلوب مع المسلمين فقط فهذه عائشة رضي الله عنها تقول دخل رهط من اليهود علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا السام عليكم . قالت عائشة ففهمتها فقلت وعليكم السام واللعة ، قالت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلا يا عائشة ، ان الله يحب الرفق في الأمر كله . فقلت يا رسول الله ، أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قلت وعليكم.

هذا انموذج كامل في الرفق يعلمنا الرفق مع أي كان دون أن نرضي الدنية في ديننا مع ذوي الطباع الخشنة ومع الكفار والمشركين ولعل تسليط سيف التكفير والتفسيق ليس من الرفق في شيء.

٢ - سفك الدماء بغير حق :

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أول ما يقضي بين الناس يوم القيامة في الدماء) فأَي دم أهرق بغير حق يعرض صاحبه لعقاب الله تعالى . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (أبغض الناس ألي الله ثلاثة ملحد في الحرم ، ومبتغ في الاسلام سنة الجاهلية ، ومطلب دم أمرئ بغير حق ليهرق دمه) اما سفك الدماء بدعوي الجهاد والعقوبات فهو ليس من اختصاص الأفراد والجماعات وانما مهمة القائمين علي شؤون المسلمين في مجتمع توفرت فيه شروط النظام الإسلامي .

فأقبل فقال : ما عنفني أحد منذ فارقت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان منزلي متراخ فلو صليت وتركته لم أت أهلي إلي الليل . وذكر أنه قد صحب النبي صلى الله عليه وسلم فرأى من تيسيره^(٤٧).

العنف ومصير الإنسان الأخروي :

إذا كان العنف يحول دعوة المسلمين من رسالة رحمة الي شبح مخيف ،ومن حضارة بناءة رائدة الي حضارة متحللة قابلة للذوبان في الدنيا ، فانه يعرض صاحبه الي غضب الله ونقمته ، لأن ذمته تشغل بداء واعراض الناس ، فيكون مصيره غدا يوم القيامة حرجا وهو في امس الحاجة الي الحسنات لذا فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفتأ يحذر الناس من التطرف والعنف والغضب والثورة ، ويدعو الي التمسك بالرحمة والتسامح وكظم الغيظ مع المسلمين وغيرهم . وهذه منهيات نهى عنها ديننا :

١ - اختيار العنف :

لعل ظهور طوائف من المسلمين تختار العنف وسيلة منهجا قد يكون مرده الي سوء الطبع الذي لم يجد الايمان طريقا الي تهذيبه . والي غياب فقه الواقع الذي يبصر بالعواقب ، اذ غياب فقه الواقع سبب في الفشل والفشل يوصل الي العنف.

عن أبي إمامة الباهلي رضي الله عنه أن، النبي صلى الله عليه وسلم قال (ان الله يحب الرفق ويرضاه ، ويعين علي الرفق ما لا يعين علي العنف)^(٤٨). وما دام الله سبحانه وتعالى لا يرضي العنف فإنه لا يرضي العمل الناتج عن عنف ، ولا أجر للإنسان عليه ، بل إن الله

اللَّهُ فَيَسْبُوهُ اللَّهُ عَذْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام ١٠٨) .

ونموذج التعاون والتكامل هو الكلمة السواء ، التي ينبغي ان يجتمع حولها المسلمون مع أهل الكتاب كما يقول الله تعالى (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (آل عمران ٦٤) .

وهذا ما يتم اليوم بواسطة المعاهدات والمواثيق الدولية ، ومن شيمة الرسول صلى الله عليه وسلم الوفاء بالعهود والمحافظة عليها يقول صلى الله عليه وسلم: (إني لا أخيس بالعهد ، ولا أحبس البرد)^(٥١) .

والجدير بالذكر بعد هذا العرض الموجز ان تمثل هذه المعاني لن تفيد فيه قراءة الكتب والعكوف علي الأحاديث النبوية ، وحتى الآيات التي أنزلها الله تعالى تبياناً لكل شئ وان كان أمراً لا بد منه وأنما لا بد في ذلك من تربية دائمة ومتواصلة تنصح وتوجه وتجنب المسلم الملتزم عثرات الطريق .

وان اعراض الشباب عما يرقق القلوب ويكسبها رحمة ورقة ورفقا في التعامل مع خلق الله ليشكل أكبر تحد للعمل الإسلامي المعاصر ، وهذا يتطلب من الحركات العاملة أن تجعل من التربية النبوية ثابتاً رئيساً في مقدمة برامجها كما ان فهم تحولات تاريخ الأمة الإسلامية يشكل ضرورة ملحة وعاجلة علي العلماء والمفكرين القيام عوض الانغماس في مناقشة جزئيات وفروع لا تزيد إلا نار التطرف اشتعالاً .

ولعله من التعسف في التأويل ان نقيد الدم المسفوك هنا بدم المسلم ، فالمراد دم المسلم وغيره . وما أحوجنا اليوم الي النظر في مثل هذه الأحاديث لنعرف واجباتنا نحو الانسانية وقد وصف الله عز وجل عباده بأنهم (لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) (الفرقان ٦٨) وذلك في معرض كلامه عن عباد الرحمن .

٣ - قتل المعاهد :

إن الاسلام نظم الحياة كلها ومن جميع جوانبها ، ولعل من سمات التعدد الثقافي كثرة المعاهدات والمواثيق الدولية ، واذا كان قد شاع في حياتنا المعاصرة نقض المواثيق والمعاهدات الدولية والاساءة الي المتعاهدين واصبح ذلك امراً عادياً فان الاسلام شدد الوعيد علي من يقتل معاهداً ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً^(٥٢) .

وان من مقاصد الشريعة الإسلامية التعارف والتعاون والتكامل بين الإنسانية رغم اختلاف الديانات ونجد أصلاً لهذا في قول الله عز وجل (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات ١٣) .

والتعارف مع المخالفين لدين الإسلام والتعاون معهم هو ما لم يمنعه القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (المتحنة ٨) .

كما ان هذا التعارف والتعاون يمهد له قول الله تعالى (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ

هوامش

وأوجز.. قال: (إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع، ولا تكلم بكلام تعتذر منه، وأجمع اليأس عما في أيدي الناس).

٢٢- صحيح مسلم بشرح النووي، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، ١٩/١٧.

٢٣- سنن الترمذي، ٢٦٨٢.

٢٤- سنن ابن ماجه، ٢٨١٠، البيهقي، شعب الإيمان، ٦٢١.

٢٥- مسند الإمام أحمد، ٦٧٥١، ٧٠٧٤.

٢٦- أخرجه البخاري، كتاب الحج.

٢٧- إشارة إلى قوله تعالى: (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) الشعراء:

٢٢٤

٢٨- أخرجه الإمام أحمد.

٢٩- أخرجه مسلم، باب الزكاة.

٣٠- أخرجه أبو داود في كتاب الحدود، باب السارق يسرق في الغزو أيقطع؟

٣١- عون المعبود شرح أبي داود، ٨٢/١٢.

٣٢- مسند الإمام أحمد ٣٠٥٧، سنن ابن ماجه ٥٧٢. قال في الزوائد: إسناده منقطع.

٣٣- أخرجه النسائي، كتاب الجنائز.

٣٤- سنن ابن ماجه، ١٤٣٩-٣٤٤٠.

٣٥- ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ٢٨١/١.

٣٦- الصنعاني، سب السلام، ٢٨٢/٢.

٣٧- أخرجه البخاري.

٣٨- صحيح البخاري بشرح الفتح، ٧٠٢.

٣٩- صحيح مسلم بشرح النووي، باب تحريم الجماع في نهار رمضان وجوب الكفارة الكبرى فيه، ٢٣٥/٧.

٤٠- صحيح البخاري بشرح الفتح، ٥٣٥، ٥٣٩، صحيح مسلم بشرح النووي، باب استحباب الإبراد بالظهور، ١١٩/٥.

٤١- أخرجه البخاري بشرح الفتح، ١١١٧، مسند الامام أحمد، ١٩٨٤٠، سنن ابن ماجه، ١٢٢٣.

٤٢- أخرجه البخاري بشرح الفتح، ٦١٢٥.

٤٣- أخرجه البخاري بشرح الفتح، ٦١٢٨.

٤٤- أخرجه البخاري بشرح الفتح، ٦١٢٧.

٤٥- المعجم الكبير للطبراني، رقم ٩٥/٧٤٤٥٨. وأخرج مسلم عن عائشة زوج النبي "ص" أن رسول الله "ص" قال: (يا عائشة، ثفن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه).

٤٦- المعجم الكبير للطبراني، رقم ٣٤٨/٢٤٥٨٢.

٤٧- أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم ٥٥٦٥.

٤٨- أخرجه البخاري، كتاب الديات، باب من طلب دم امرئ يغير حق، رقم ٦٣٧٤.

٤٩- أخرجه البخاري، كتاب الدياب.

٥٠- أخرجه البخاري، كتاب الجزية والموادعة.

٥١- أخرجه أبو داود.

١- أخرجه البخاري.

٢- رواه الحاكم في المستدرک، ٧٥/٣، رقم ٤٤٤٨، وانظر مثله عند الألباني في صحيح أبي داود، ٢٨٧٥، ومشكاة المصابيح، ٦٠١١، وكتاب السنة، ١١٣٥، وقال: حديث صحيح.

٣- ذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير، ٥٠٤/١، رقم ٢٥٨٢.

٤- سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٣/١، رقم ١٧٤٩.

٥- صحيح مسلم، كتاب الامارة، باب وجوب الوفاء ببعية الخلفاء الاول فالاول، ١٤٧٢/٣. وفي هذا الحديث: (...ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه أن استطاع...)

٦- محمد الخضري، تاريخ التشريع الاسلامي، ص ٢٣٠.

٧- ابن أبي الوفاء، طبقات الحنفية، ص ٤٩٦.

٨- ابن العماد، شذرات الذهب، ٢٢٨/١.

٩- سنن ابن ماجه، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، ٦٥٩/١.

١٠- انظر الذهبي في سير أعلام النبلاء، ٨٠/٨، تاريخ الطبري، ٤٢٧/٤.

ابن الأثير في الكامل في التاريخ، ٥٣٢/٥، القاضي عياض في ترتيب المدرك وتقرير المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ١٢٥/١، السيوطي في تاريخ الخلفاء، ص ٢٥٠.

١١- شذرات الذهب، ٢٩٠/١.

١٢- أبو نعيم حلية الأولياء، ١٥٣/٩، أبو نصر السبكي، الشافعية الكبرى، ٢٩٩/١، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٥٨/١٠.

١٣- شذرات الذهب، ٣٢٣/١.

١٤- عبد السلام فيفو، المحنة في حياة الفقهاء، ص ٢١.

١٥- ابن العماد، شذرات الذهب، ٣٣٨/١.

١٦- انظر: قطب مصطفى سانو، أنوار النظر الاجتهادي المنشود في ضوء الواقع المعاصر، ص ٣٥ وما بعدها.

١٧- رواه الطبراني في الارسط، ٣٧١/١١.

١٨- انظر تاريخ التشريع الاسلامي، ص ٢٧٤-٢٧٣.

١٩- إعلام الموقعين، ٨٧/١.

٢٠- المصدر نفسه، ٣/٢.

٢١- الشاطبي، الموافقات في أصول الأحكام، ٦/٢.

٢٢- نفسه، ١٦٨/٢.

٢٣- عمر عبيد حسنة، فقه الدعوة... ملامح وآفاق، ١٨٨/٢.

٢٤- سيد قطب، معالم في الطريق (بيروت- دار الشروق، ١٩٩٣م) ص ٩٢١.

٢٥- نفسه، ص ٢٢.

٢٦- نفسه، ص ٦٤.

٢٧- عبد السلام ياسين، تنوير المؤمنات، ١٥٢/١-١٥٣.

٢٨- عبد السلام ياسين، العدل... الاسلاميون والحكم، ص ٤٨٨.

٢٩- الراغب الاصفهاني، مفردات القرآن، مادة (فَن).

٣٠- أخرجه البخاري، كتاب العلم.

٣١- الطبراني، الاوسط، ٤٤٢٤، وأخرجه ابن ماجه عن أبي أيوب رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبي "ص" فقال: يا رسول الله، علمني